معروفان لأن العلاء المعرى فى لزوم ما لايلزم وصحة العجز فى البيت الأول (يردده قسرا وتضمن نفسه الدركا) ، واما القصر وما يتبعه من الأبنية فلم يبق لها أثر ودخلت كلها فى قصر حسن باشا المناسترلى وحديقته .

الجزيرة فى حكم الأسرة المحمدية الحاضرة :

فى زمن العزيز محمد على أنشأ ولده العزيز ابراهيم فى خرطوم الجزيرة الشمالى بستانا كبيرا جلب له الأشجار الغريبة من البلاد البعيدة وبنى به منظرة عالية ومغارة مجللة بالودع ، وقد أدركنا بقايا ذلك . وكان من مزايا هذا البستان احتواؤه على أنواع كثيرة من الاشجار والنباتات المحتاج اليها فى الطب ، ومن طالع كتاب المادة الطبية للرشيدى المسمى عمدة المحتاج (١) يرى عجبا مما كان فيه من تلك الانواع ، وكان قصد العزيز ابراهيم رحمه الله الاستغناء بها عن جلب العقاقير من البلاد الافرنجية بقدر المستطاع .

وقد أنشأ أمراء ذلك العصر وسراته القصور والبساتين الأنيقة بالجزيرة ، وكان للخديو اسماعيل بن العزيز ابراهيم قصر بديع فى وسطها على الشاطىء الشرقى تحيط به حديقة غناء ثم أهملت من بعدهم وهجرت فدب اليها الخراب وادركناها جميعها وهى خاوية على عروشها ، وانحط شان الجزيرة الى ان أنشئت فيها الجسور الثلاثة : جسر محمد على ، وجسر الملك الصالح بينها وبين مصر القديمة ، وجسر عباس بينها وبين الجيزة ، فعاد اليها الانتعاش وأقبل الناس على البناء بها فهدمت قصورها وبيعت أراضيها قطعا وامتلأ الثلث الجنوبى بالدور الصغيرة والكبيرة ولكن على الطراز الأفرنجى الجديد وقطع ما كان بها من الشجر والنخل وحطمت عروش الكروم فعريت من الظلال وزالت عنها مسحة الملاحة القديمة بعد أن كانت بيساتينها وحقولها قرة للعيون وفرجة للمحزون . ؟

---

(١) عمدة المحتاج فى على الادوية والعلاج للسيد احمد بن حسن الرشيدى الطبيب المتطبى المتوفى سنة ١٢٨٢ طبع فى بولاق سنة ١٢٨٣ فى أربعة أجزاء كبيرة ثم عمل له السيد حسين عودة الطبيب بدمشق وأحد تلاميذ مدرسة الطب المصرية فهرسا مفنيا فى جزء لطيف طبع سنة ١٢٨٨ وكانت وفاته سنة ١٣٣٢ عن نحو ثمانين سنة .

أبو عبد الله
آخر ملوك الأندلس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ١ —

مأساة شهيرة فى التاريخ الاسلامى ، هى مصرع غرناطة آخر معقل للاسلام بالاندلس ، وشخصية محزنة هى شخصية آخر ملك أندلسى مسلم ، طويت على يده تلك الصفحة المجيدة الباهرة التى افتتحها موسى وطارق فى تاريخ الاسلام باسبانيا قبل ذلك بثمانية قرون

لبث الاسلام فى اسبانيا خلال هذه القرون الثمانية يغالب النصرانية وتغالبه ، والاسلام منذ انهار صرح الدولة الاموية دائم الخلاف والتفرق ، سائر أبدا فى طريق الضعف والانحلال ؛ والنصرانية تجتمع دائما على غزوه ونضاله ، وتنتزع منه تباعا قواعده وثغوره ، حتى إذا جاء القرن الثامن لم يبق من دولة الاسلام الشامخة بالأندلس سوى مملكة غرناطة الصغيرة ، تواجه وحدها داخل الجزيرة عدوها القوى . وسطعت هذه الاندلس الصغيرة مدى حين ، ولكنها لم تنج من خطر التفرق ؛ واسبانيا النصرانية أثناء ذلك متربصة بها تكاد تلتهمها من وقت الى آخر ، لولا أن كانت صولة الاسلام فى الضفة الأخرى من البحر — فى المغرب الاقصى — تروعها وتردها . وكانت مملكة غرناطة كلما تبينت شبح الخطر الداهم تستغيث بجارتها المسلمة القوية فيما وراء البحر ، دولة بنى مرين . ولكن بنى مرين لم يستجيبوا دائما الى دعوة الاسلام المحتضر بالأندلس ، وكانت لهم أحيانا مطامع ومشروعات فى الأندلس ذاتها . وكانت اسبانيا النصرانية كلما استيقنت تصرم العلائق بين الشقيقتين انقضت على الأندلس فاقتطعت منها ثغرا أو قاعدة جديدة . وكان رجالات الأندلس يستشفون من وراء ذلك خطر الفناء المحقق ، بل لقد استشعر به ابن الخطيب وزير الأندلس وكاتبها الكبير قبل تحققه بأكثر من قرن ، وصرح به فى إحدى رسائله إلى ملك فاس اذ يدعوه إلى غوث الأندلس ونجدتها ويقول : « ولا شك عندعاقل أنكم إن انحلت عروة

تأميلكم أو أعرضتم عن ذلك الوطن استولت عليه يد عدوه » (١)
وهكذا نرى الأندلس منذ أوائل القرن التاسع الهجرى تسير بسرعة فى طريق الانحلال والفناء ، حتى إذا كانت أواخر هذا القرن لم يبق للاسلام فى أسبانيا سوى مملكة غرناطة الصغيرة وفيها مدن وثغور قلائل تتربص بها النصرانية وتعد العدة لسحقها

وكان على عرش غرناطة يومئذ السلطان أبو الحسن على بن سعد النصرى الاحمر . ولى الملك سنة ٨٧١ هـ (١٤٦٦ م) ، ولكنه لم يستخلص الملك لنفسه إلا بعد نضال عنيف بينه وبين منافسيه وعلى رأسهم أخوه أبو عبدالله المعروف « بالزغل » . وكانت الحرب الاهلية تضطرم فى مملكة غرناطة كلما لاحت فرصة للتنازع على العرش . فلما استقر أبو الحسن فى عرشه ، أبدى همة فائقة فى تحصين المملكة وتنظيم شئونها ، وبث فيها روحا جديدا من البأس والطمأنينة ، واستطاع ان يسترد عدة من الحصون والقواعد التى افتتحها النصارى ؛ ولاح للنصرانية أن الأندلس المحتضرة تكاد تبدأ حياة جديدة . بيد أن هـــذا البعث الخلب لم يطل أمده . ذلك أن عوامل الخلاف الخالدة عادت تعمل عملها ، وبذر أبو الحسن حوله بذور السخط والغضب بما ارتكبه فى حق الأكابر والقادة من العسف والشدة ، وبما اغرق فيه من صنوف اللهو والعبث . وكان أبو الحسن قد اقترن بالأميرة عائشة ابنة عمه السلطان أبى عبد الله الايسر ، ورزق منها ولدين هما محمد ويوسف . ولكنه عاد فاقترن بنصرانية رائعة الحسن تعرف فى الرواية العربية « بثريا الرومية » . وتقول الرواية الاسبانية إن « ثريا » هذه كانت ابنة عظيم من عظماء اسبانيا هو القائد (سانكو كنيس دى سوليس) وأنها أخذت أسيرة فى بعض المعارك وهى صبية فتية ، وألحقت وصيفة بقصر الحمراء ، فهام أبو الحسن بجمالها حبا ، ولم يلبث أن تزوجها واصطفاها على زوجه الأميرة عائشة المعروفة « بالحرة » تمييزا لها من الجارية الرومية أو إشادة بعفتها وطهرها (٢) ولم يكن

(١) المقرى فى أزهار الرياض - (تونس) ص٥٦

(٢) راجع Irving : Conquest of Granada حيث ينقل الرواية الاسبانية عن شخصية ثريا (الفصل التاسع) . ولكن الرواية العربية لاتذكر إلا أن « ثريا » كانت جارية رومية - راجع المقرى فى نفح الطيب « ج ٢ ص ٦٠٨ » وأخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر « طبعة ميلر » ص٦ - ويتفق برسكوت مع الرواية العربية Hist - of Ferdinand and Isabella P.219

اقتران السلطان بنصرانية بدعة ، ولكنه تقليد قديم فى قصور الأندلس ، وقد ولد كثير من خلفاء الأندلس وأمرائها العظام من أمهات من النصارى مثل عبد الرحمن الناصر وحفيده هشام المؤيد . وكان لهذا التقليد أثره السيء فى انحلال عصبية الدولة الاسلامية ، بيد انه كان أشد خطرا وقت الانحلال العام . وكان وجود أميرة أجنبية فى قصر غرناطة تستأثر بالسلطان والنفوذ فى هذا الظرف العصيب ، عاملا جديدا فى إذكاء عوامل الخصومة والتنافس . ذلك لأن « ثريا » أعقبت من السلطان أبى الحسن ولدين ، وأرادت أن يكون العرش لأحدهما ، وبذلت كل ما استطاعت من الاغراء والدس لابعاد خصيمتها الأميرة عائشـــة عن كل نفوذ وحظوة ، وحرمان ولديها محمد ويوسف من كل حق فى الملك ، وكان أكبرهما محمد ولقبه أبو عبد الله ولى العهد المرشح للعرش . فنزل أبو الحسن عند سعى حظيته وأقصى عائشة وولديها عن عطفه ورعايته : ولا زالت ثريا فى سعيها ودسها حتى اعتقلهم أبو الحسن فى أحد أبراج الحمراء وضيق عليهم وأخذ يعاملهم بمنتهى الشدة والقسوة ؛ فأثار هذا التصرف غضب كثير من الكبراء الذين يؤثرون الأميرة الشرعية وولديها بعطفهم وتأييدهم ، وانقسم القصر وانقسم الزعماء والقادة إلى فريقين خصيمين ، واضطرمت الاهواء والشهوات والأحقاد ؛ واشتد السخط على أبى الحسن وحظيته التى أضحت سيدة غرناطة الحقيقية ، واستأثرت بكل سلطة ونفوذ

وكانت الاميرة عائشة امرأة وافرة العزم والشجاعة فلم تستسلم إلى قدرها الجائر ، بل عمدت إلى الاتصال بعصبتها وأنصارها ، وأخـــذت تدبر معهم وسائل الفرار والمقاومة . وفى ذات ليلة استطاعت أن تفر من الحمراء مع ولديها محمد ويوسف بمعاونة بعض الاصدقاء المخلصين . وتقدم الرواية إلينا عن هذا الفرار صورا شائقة ، فتقول إن الاميرة استعانت بأغطية الفراش على الهبوط من نوافذ البرج الشاهق فى جوف الليل ، وأبدت فى ذلك من الجرأة والشجاعة ما يخلق بأبطال الرجال . وكان ذلك فى ليلة من ليالى جمادى الثانية سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م) . واختفى الفارون حينا حتى قويت دعوتهم وظاهرهم فريق كبير من أهل غرناطة ، وظهر الامير الفتى محمد أبو عبد الله فى رادى آش حيث جمع عصبته وأنصاره ونشبت الثورة وانقضت العاصفة على أبى الحسن ، وكانت عصبته أقلية ففر إلى مالقة وكان بها وقتئذ أخوه الأمير أبو عبد الله محمد

ابن سعد (المعروف بالزغل) يدافع عنهـــا جيشا جرارا من النصارى سيره ملك قشتالة (فرديناند الخامس) لافتتاحها . وجلس أبو عبد الله محمد بن السلطان أبي الحسن مكان أبيه على عرش غرناطة (أواخر سنة ٨٨٧ هـ) وأطاعته غرناطة ووادي آش وأعمالهما وبقيت مالقة وغرب الاندلس على طاعة أبيه . وكان أبو عبد الله يومئذ فتى فى نحو الخامسة والعشرين

وكان ملك قشتالة يرقب سير الحوادث فى مملكة غرناطة بمنتهى الاهتمام . فلما اضطرمت نار الحرب الأهلية ولاحت له فرصة الغزو والفتح ، سير جيشه الى مالقة لافتتاحها ولكن المسلمين تأهبوا لرد النصارى بعزم وقوة وهزموهم فى عدة مواقع فيما بين مالقة وبلش (فيليز Velez) وهزم النصارى فى ظاهر مالقة هزيمة ساحقة وقتـا وأسر منهم عدة آلاف بينهم عدة من الزعماء والاكابر (صفر ٨٨٨ هـ — مارس ١٤٨٣ م) وكان منظم هذا الدفاع الباهر الامير أبو عبد الله « الزغل » فانتعشت آمال المسلمين نوعا وسرت الحماسة إلى غرناطة واعتزم ملكها الفتى أن يحذو حذو عمه الباسل فى الجهاد والغزو وأن يغتنم فرصة اضطراب النصارى عقب الهزيمة ، فخرج فى قواته فى ربيع الاول من هذا العام (ابريل ١٤٨٣) متجها نحو حصن قرطية شمال شرقى غرناطة ؛ واجتاح فى طريقه عددا من الحصون والضياع ، ومزق النصارى فى عدة معارك محلية ؛ ثم ارتد منقلا بالغنائم يريد العودة فأدركه النصارى فى ظاهر قلعة اللشانة (لوتشينا Lucena) وكان يزمع حصارها : ونشبت بين الجيشين معركة هائلة ارتد فيها المسلمون إلى ضفاف شنيل والنصارى فى اثرهم ، فهزم المسلمون هزيمة شديدة وغرق كثير منهم فى شنيل . وقتل وأسر كثير من قادتهم وفرسانهم ، وكان بين الاسرى السلطان أبو عبد الله محمد نفسه ، عرفه الجند النصارى من الاسرى أو عرفهم بنفسه خشية الاعتداء عليه وأخذوه إلى قائدهم الكونت كابرا ، فاستقبله بحفاوة وأدبيوأنزله بأحد الحصون القريبة تحت رقابة حرس قوى ، وأخطر فى الحال ملكى قشتالة بالنبأ السعيد ؛ وعاد المسلمون إلى غرناطة دون ملكهم ، فارتاعت غرناطة للنكبة واضطرب الشعب ؛ واجتمع الكبراء والقادة وقرروا استدعاء أبي الحسن السلطان المخلوع ليجلس على العرش ، ولكن أبا الحسن كان قد هده الاعياء والمرض وفقد بصره ولم يستطع أن يضطلع طويلا بأعباء الحكم ، فنزل عن العرش لأخيه محمد أبي عبد الله « الزغل » حاكم مالقة وارتد الى المنكب فأقام بها حينا حتى توفى ، وجلس « الزغل » على العرش يدير شئون المملكة وينظم الدفاع عن أطرافها

أما السلطان أبو عبد الله بن أبي الحسن فلبث يرسف فى أسره عند النصارى وأدرك ملك قشتالة فى الحال ما للأمير الأسير من الأهمية ، وأخذ يدبر افضل الوسائل للاستعانة به فى تحقيق مآربه فى مملكة غرناطة . وبذل أبو الحسن حين عوده إلى العرش مجهودا لافتداء ولده لا حبا فيه وشفقة عليه ، ولكن لكى يحصل فى يده ويأمن بذلك شره ومنافسته ؛ وعرض على فرديناند نظير تسليمه أن يدفع فدية كبيرة وأن يطلق عددا من أكابر النصارى المأسورين عنده فأبى فرديناند وآثر أن يحتفظ بالأسير الى حين ، وبذلت الاميرة عائشة من جهة أخرى مجهودا آخر لانقاذ ولدها بمؤازرة الحزب الذى يناصره ، واقترحت على ملك قشتالة معاهدة خلاصتها أن يتولى أبو عبد الله الملك فى طاعة ملك قشتالة ، وأن يدفع له جزية سنوية ، وأن يطلق كل عام عددا معينا من النصارى ، وأن يدفع مقابل إطلاقه فدية كبيرة وأن يفرج فى الحال عن أربعمائة من أسرى النصارى يختارهم ملكهم ، وأن يقدم المعاونة العسكرية كلما طلبت إليه ، وأن يقدم ابنه الوحيد كفالة مع عدد من أبناء الأسر الكبيرة (١) ومع أن عقد هذه المعاهدة كان خطوة كبيرة فى سبيل القضاء على مملكة غرناطة ، فان فرديناند رأى قبل عقدها أن يستغل أسر ملك غرناطة وأن يستعين به على تنفيذ برنامجه الحربى . وكان أبو عبد الله (٢) أميرا ضعيف العزم والارادة ، قليل الحزم والخبرة ، كثير المطامع والاهواء ، ولم يكن يتمتع بشىء من تلك الخلال الباهرة التى امتاز به أسلافه وأجداده العظام بنو الأحمر ، وكان الملك والحكم غايته يبتغيها بأى الأثمان والوسائل . وقد ألفى ملك قشتالة القوى فى ذلك الأمير الضعيف المستهتر بحقوق أمته ودينه ، أداة صالحة يوجهها كيفما شاء ، فاتخذه وسيلة لبث دعوته بين أنصاره ومؤيديه فى غرناطة وغيرها ، وليقنع المسلمين بأن الصلح مع ملك قشتالة خير وأبقى ، وسير ملك قشتالة فى الوقت نفسه قواته فى أنحاء مملكة غرناطة لكى تنتزع أثناء الاضطراب العـــام كل ما يمكن انتزاعه من القواعد والحصون الاسلامية ، فاستولت

(١) برسكوت — ص ٣٣٤ — وايرفنج (الفصل التاسع عشر)

(٢) نرى أن نشير هنا إلى أن أبا عبد الله يعرف فى الرواية النشتالية والافرنجية باسم « بوابديل » Boabdil وهو تحريف لابي عبد الله

على عدة منها ، ونشبت من جهة أخرى فى غرناطة حرب أهلية لم تكن بعيدة عن وحى أبى عبدالله وحزبه ، وقامت (البيازين) ضاحية غرناطة بدعوته ، وشغل ملك غرناطة (ابو عبدالله الزغل) باخماد الثورة عن مقاتلة النصارى . وفى نفس هذه الآونة العصيبة أطلق فرديناند سراح أبى عبدالله بعد ان ارتضى عقد المعاهدة التى عرضت عليه مع تعديل يسير فى بعض نصوصها ، وبعد لقاء تم بين الملكين فى قرطبة أعلن فيه أبو عبدالله خضوعه وطاعته لملك قشتالة ، واتفق ان تكون الهدنة لعامين وأن تطبق فى جميع الأنحاء التى تدين بالطاعة لأبى عبدالله . وظهر أبو عبدالله يبث دعوته فى الأنحاء الشرقية والحرب الاهلية قائمة فى غرناطة (أوائل سنة ٨٩١هـ-١٤٨٦م) وبدأت المفاوضة بينه وبين عمه (ملك غرناطة) فى الصلح . ولكن حدث أثناء ذلك أن هاجم النصارى مدينة لوشة جنوب غربى غرناطة واستولوا عليها (جمادى الاولى سنة ٨٩١ هـ) وكان موقف ابى عبدالله أثناء هذه الحوادث مريبا ؛ وكان يمزج الدعوة لنفسه بالدعوة للملك قشتالة ، ويشيد بمزايا الصلح المعقود معه ، ولم يكن خافيا أنه يستظل بمظاهرة النصارى (١) وفى شوال سنة ٨٩١ ظهر أبو عبدالله فى (البيازين) فجأة واجتمع حوله أنصاره ، وأعلن الثورة على عمه : ونشبت بينهما الحرب فى ظاهر غرناطة ، وأمد فرديناند حليفه أبا عبد الله بالجند والذخائر والمؤن . واستمر القتال بينهما مدى أشهر . وفى ربيع الثانى سنة ٨٩٢ (١٤٨٧ م) سير فرديناند قواته الى بلش مالقة (فيليز مالاجا) الواقعة على مقربة من ثغر مالقة لتتخذها تمهيدا للاستيلاء على مالقة ، وأدرك أبو عبد الله الزغل أهمية بلش الحربية فهرع إلى الدفاع عنها مع بعض قواته ، وترك البعض الآخر لقتال أبى عبدالله وأهل البيازين ولكن إقدام الزغل وعزمه وشجاعته لم تغن شيئا ؛ وسقطت بلش فى يد النصارى (جمادى الاولى ٨٩٢ - ابريل ١٤٨٧) وعاد الزغل بجنده مبمما صوب غرناطة ؛ ولكنه علم أثناء مسيره أن غرناطة قامت أثناء غيابه بدعوة أبى عبدالله ، وأنه دخلها وتبوأ العرش مكانه (جمادى الأولى) ، فارتد بصحبه إلى وادى آش وامتنع بها ، وانقسمت بذلك مملكة غرناطة الصغيرة إلى شطرين يتربص كل منهما بالآخر : غرناطه وأعمالها ويحكمها أبو عبدالله محمد ، ووادى آش وأعمالها ويحكمها عمه أبو عبدالله الزغل ، وتحقق بذلك ما كان يبتغيه ملك قشتالة من تمزيق شمل البقية الباقية من دولة الاسلام بالاندلس تمهيداً للقضاء عليها ؟ « للبحث بقية »

(١) راجع اخبار العصر ص ٢٢ و ٢٣ — والمقرى ج ٢ ص ٦١٢

أطلنطس (ATLANTIS)

القارة المفقودة !

للدكتور محمد عوض محمد

فى زعم طائفة من الكتاب أن المحيط الاطلسى الشمالى لم يكن فى جميع العصور بحراً خالصاً ، بل كانت تحتله قارة عظيمة تصل مابين العالم القديم والعالم الجديد . وهذا الزعم هو ما نريد أن نعرض له فى هذا المقال .

من أهم ما يمتاز به المحيط الأطلسى — فى وقتنا هذا — قلة الجزر . فاذا صرفنا النظر عن الجزائر الملاصقة للسواحل ، مما يعده الجغرافيون جزءاً متمما للقارات ، فان هذا المحيط عبارة عن مساحة هائلة من الماء ، ليس فيها من الجزر سوى الشىء القليل جداً .

هذه حالة المحيط اليوم ، لكن هذه لم تكن حالة المحيط فى كل عصر وزمن . فان تعاقب الماء واليابس على الجزء الواحد من سطح الأرض ، من الحقائق الجيولوجية المسلم بها . وليس هنالك خلاف فى أن أمريكا الشمالية كانت متصلة بأوربا ، وأمريكا الجنوبية بأفريقية فى زمن جيولوجى قديم .

غير أن القائلين بوجود جزيرة عظيمة أو عدة جزر كبيرة فى وسط المحيط الأطلسى ما بين ما هو اليوم أمريكا ، وبين ما هو اليوم أوربا وافريقية ، أطلقوا عليها اسم قارة اطلنطس — هؤلاء الكتاب يزعمون أن هذه القارة لم تكن موجودة فى زمن جيولوجى قديم ، يرجع إلى ملايين السنين ، بل إلى عهد حديث جداً ، عهد نشأة الانسان واستعماره لسطح الارض . ولقد يسرف بعضهم فيزعم أن هذه (القارة) كانت موجودة قبل العصر التاريخى ، بحيث كان المصريون القدماء يعلمون من أمرها الشىء الكثير .

من المهم إذن أن نقرر أن الاتصال بين شرق المحيط وغربه فى زمن جيولوجى قديم ، ليس موضع البحث ، وليس هو بالأمر الذى يعنى به هؤلاء الكتاب ، بل الذى يعنيهم وجود اليابس فى هذه المساحة العظيمة التى لا نرى فيها اليوم سوى الماء ، وذلك فى عصر